نظرية الاستعارة التصورية ودورها في فهم الخطاب الشرعي: استعارة الحياة في القرآن الكريم

[1] عادل غرار*

[1]جامعة مولاي إسماعيل بمكناس (المغرب)

The Theory of Conceptual Metaphor and Its Role in Understanding Religious Discourse: The Metaphor of Life in the Holy Quran

[1]THE RESEARCHER GHRAR ADIL*

[1]moulay Ismaal university in meknes (morocco), adilghrar@gmail.com

تاريخ الاستلام: 10 / 2025/08 تاريخ القبول: 20 / 09/ 2025 تاريخ النشر:01 / 12/ 2025

الملخص:

(يستهدف هذا المقال طَرْق موضوع التأويل في الخطاب الشرعي، مع ما يعرفه هذا الخطاب من خصوصيات تُميّزه عن باقي الخطابات البشريّة في علاقته بعلوم اللغة العربية والمستجدات اللسانية المعرفية الحديثة، الشيء الذي يقتضي منا استحضار خصوصية هذا الخطاب أثناء عملية تأويله ومحاولة فهمه، وخاصة إذا تعلق الأمر بظاهرة لغوية حيّة عرفت خلافا كبيرا بين العلماء عبر التاريخ؛ حيث يتعلق الأمر بالاستعارة وفق توجُّهيْن مُتباينَيْن: المنظور الجمالي، في مقابل المنظور التصوري اللساني المعرفي.

وقد خلص هذا البحث إلى مجموعة من النتائج التي لخصت المسار والأشواط التي قطعتها الاستعارة في كتب الدارسين والباحثين، والتي كان من أهمها الوقوف على أبرز الاختلافات حول هذا المفهوم عند المتقدمين من العلماء، وتحديد الأسباب الكامنة وراء هيمنة الرؤية الجمالية في كتاباتهم المختلفة، مع التركيز على الكيفية التي استغلّ من خلالها الخطاب القرآني بعض المجالات المشتركة بين المجتمعات البشرية لترسيخ تصوره حول مفهوم الحياة من منظور لساني تصوري معرفي، وهو ما يؤكد لنا إمكانية استثمار نظرية الاستعارة التصورية في فهم الخطاب القرآني، دون المساس بخصوصيات هذا الخطاب المقدس).

كلمات مفتاحية: الخطاب الشرعيّ، نظريّة الاستعارة التصوريّة، التأويل، المنظور الجمالي، المنظور اللساني المعرفي.

Abstract:

(This article targets the methods of interpretation in the religious discourse, with the unique characteristics that distinguish this discourse from other human discourses in its relation to the sciences of the Arabic language and modern cognitive linguistics developments. This necessitates us to consider the specificity of this discourse during the process of interpreting and understanding it, especially when it involves a living linguistic phenomenon that has seen significant disagreement among scholars throughout history; specifically, the metaphor according to two contrasting perspectives: the aesthetic perspective and the cognitive linguistic perspective.

*الطالب الباحث عادل غرار.

*THE RESEARCHER ADIL GHRAR.

This research concluded with a set of results that summarised the path and milestones that metaphor has traversed in the works of scholars and researchers. Among the most important findings were the key differences regarding this concept among earlier scholars and the identification of the underlying reasons behind the dominance of the aesthetic perspective in their various writings. The focus was on how the Qur'anic discourse utilised some common areas among human societies to reinforce its conception of life from a cognitive linguistic perspective. This confirms the possibility of employing the conceptual metaphor theory in understanding the Qur'anic discourse without compromising the sanctity of this sacred text.).

Keywords: Religious discours; conceptual metaphor theory; interpretation; aesthetic perspective; linguistic-cognitive perspective).

مقدمة:

يُعَدُّ المدخل البلاغي من المداخل الأساسية لفهم الخطاب الشرعي واكتساب القدرة على تأويله وحمله على الوجوه الصحيحة التي لا تُنافي المقاصد العامة للشريعة، حتى إنّ الكثير ممن صنفوا في المباحث الأصولية اشترطوا توفر المفتي والمجتهد على قدر كاف من علوم اللغة يؤهله للتعامل مع النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، وذلك لاختصاصها برفعة مصدرها وقداسته وعصمته، وهو ما دفع العديد منهم إلى نفي وجود المجازات في القرآن الكريم، في حين اعتبرها بعضهم دليلا على الإعجاز في نصوص الوحي الشريف.

وتبعا لما سلف ذكره؛ فقد ناقش الأصوليون واللغويون الاستعارة ضمن قضايا الحقيقة والمجاز، ونشب بينهم خلاف كبير حول أقسام الحقيقة والمقدم منها حال التعارض بينها، والأمر نفسه يسري على أقسام المجاز التي من ضمنها الاستعارة بأنواعها المختلفة. ولم يقف الأمر عند الخلاف في الأقسام، بل سيتجاوز ذلك إلى إثبات وجودها أو نفيا في نصوص الوحي، تبعا لتعدد مذاهبهم العقدية والفكرية، الشيء الذي كان له انعكاس على طريقة تأويلهم لآيات الذكر الحكيم.

وإذا كانت المواقف السابقة لم تبتعد كثيرا عمّا تَمّ تسطيره في كتب البلاغة العربية قديما؛ حيث جعلت من الاستعارة آلية لتذوق البعد الجمالي في النص القرآني، وفي الوقت نفسه دليلا على مواطن الإعجاز في كتاب الله العزيز، فإن الدراسات اللسانيات المعرفية الحديثة لها رأي آخر تجاه هذه المقاربة الجمالية للاستعارة التي ناقشتها في بعدها اللغوي، أو بوصفها نتاجا لخرق قوانين التراكيب الاعتيادية، دون الالتفات إلى القوانين الداخلية الذهنية المتحكمة في إنتاجها، والدور الذي يمكن للمؤثرات المحيطة في الوجود الخارجي أن تلعبه في تشكيل نظرتنا للعالم، والكيفية التي تستفيد من خلالها الاستعارات من احتكاكنا المستمر بالأشياء والأحداث من حولنا، وكذا الأسس والمبادئ المساهمة في عملية تَشَكُّلِهَا ذهنيا ولغويا على حد سواء، ليتجاوز هذا التوجه اللساني للاستعارة بذلك الوظائف البلاغية عند أرسطو ، والتي تراوحت بين المحاكاة في الشعر والإقناع في الخطابة، ولِيَتِمَّ النظر إلى الاستعارة بوصفها آلية ذهنية تصورية.

وهكذا؛ سيكون الإشكال الرئيس الذي سأركز عليه في هذا المقال هو ما تطرحه الاستعارات المتصلة بمفهوم الحياة الواردة بالخطاب الشرعي حال فهمها وتأويلها من تناقضات، نتيجة لتأثرها بما راكمته الذات المؤَوِّلة من تجارب مع محيطها اللغوي والمادي، وهو ما قد يوقعها في التعامل مع الخطاب الشرعي كما تتعامل مع باقي الخطابات البشرية، ومنه؛ الوقوع في انحرافات الفهم كالتجسيم والتشبيه والتأويلات الفاسدة للنص القرآني.

ومن أجل مقاربة الإشكالية السابقة؛ فإنني سأنطلق من فرضية مفادها أن الشارع الحكيم يراعي في خطابه الشرعي معهود المتلقِّين من كلامهم وتخاطبهم، لأن الغرض من هذا الخطاب هو إفهام المخاطبين مضمون هذه النصوص

الشرعية لا الإغراب عليهم، وأنّ الاستعارات الواردة في القرآن الكريم جزء من هذا الخطاب، فيمكننا معالجتها باعتبارها آلية للإفهام لا بكونها مصدرا للإبهام والإعجام.

وأما بالنسبة للمنهج الذي سأعتمده في هذه الدراسة؛ فهو منهج استنباطي ينسجم مع طبيعة الإطار النظري – نظرية الاستعارة التصورية - الذي يعتقد أصحابه أن الممارسات اللغوية الاستعارية هي إسقاطات للممارسات الذهنية الباطنية، وهو انطلاق من العام (العمليات الذهنية) نحو الخاص (الممارسات اللغوية) في القرآن الكريم.

ويكون الموضوع الأساس من هذا البحث هو: الوقوف على مدى قدرة نظرية الاستعارة التصورية في اللسانيات المعرفية على استيعاب وفهم إشكاليات التأويل في الخطاب الشرعي، ومدى مساهمتها في تقريب وجهات النظر المتعلقة بالمجاز في اللغة والقرآن الكريم حول مفهوم الحياة؛ حيث تتلخص أهداف هذه الورقة فيما يلي:

- حصر المواقف المتعلقة بالمجاز في القرآن الكريم واللغة نفيا وإثباتا؛
- تلخيص الحجج المرتبطة بكل موقف؛
- الكشف عن التصور الذي تقدمه لنا نظرية الاستعارة التصورية في هذا الشأن؛
- الوقوف على المساهمات التي يمكن لهذه النظرية اللسانية أن تقدمها في فهم وتأويل الاستعارات القرآنية عموما، واستعارات الحياة على وجه الخصوص؛

وحتى أحقق الأهداف السالفة الذكر، وأتمكن من استيعاب المحاور المرتبطة بها، فإنني سأسعى للإجابة عن جملة من التساؤلات هي: ما الأسباب الحقيقية الكامنة وراء الخلاف بين نفاة المجاز ومثبتيه في القرآن الكريم واللغة؟ وما التصور الذي عالجت من خلاله اللسانيات المعرفية مفهوم الاستعارة؟ وكيف يمكننا الاستفادة من هذه النظرية لفهم الخطاب الشرعي الذي تجسده استعارات الحياة؟ حيث تشكل هذه التساؤلات الأرضية العامة لمحاور هذا البحث، والتي سأعمل من خلالها على التفصيل في نظرية الاستعارة التصورية، وكذا الدور الذي يمكنها أن تلعبه في فهم الخطاب الشرعي على سبيل الإجمال، وفهم الاستعارة المرتبطة بمفهوم الحياة في القرآن الكريم على سبيل التفصيل.

المبحث الأول

مذاهب الأصوليين حول الاستعارة في اللغة والقرآن الكريم

المطلب الأول: مثبتي المجازوالاستعارات في القرآن الكريم واللغة:

لقد اختلف علماء الأصول حول المجاز في القرآن بفروعه وأقسامه المختلفة، وتبعا لذلك اختلفوا في حضور الاستعارة في آيات الذكر الحكيم، فكانت لهم في ذلك مذاهب معلومة معروفة، تراوحت بين النفي التام من اللغة والقرآن، وبين الإثبات مطلقا فيهما، وبين النفي في القرآن مع الإثبات في اللغة.

وقد اشتهر في هذا الموضوع ابن جني من اللغويين الذين جعلوا الغلبة للمجاز على الحقيقة في اللغة، وهو ما صرح به في باب وَسَمَهُ بقوله: "باب في أنّ المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة: اعلم أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة"(ابن جني، 1952، ج 2، ص 446). فكان له قصب السبق في إثارة هذا النقاش بين اللغويين والأصوليين؛ حيث نجد تاج الدين السبكي في "جمع الجوامع" يعلق على موقف ابن جني في سياق الحديث عن أسباب العدول عن الحقيقة للمجاز بقوله: وإنما يُعدل إليه لثقل الحقيقة، أو بشاعتها، أو جهلها، أو بلاغته، أو شهرته، أو غير ذلك، وليس غالبا على اللغات خلافا لابن جني(تاج الدين السبكي ، 2003، ص 30).

وإرتباطا بإثبات المجاز في اللغة والخطابات الشرعية، نجد السرخسي يصرح أن كلا النوعين - الحقيقة والمجاز - موجود في القرآن والأحاديث الشريفة والخطب وأشعار العرب وغيرها، حتى كاد المجاز يغلب الحقيقة لكثرة الاستعمال، وبسببه اتسع اللسان العربي وحسنت المخاطبات بينهم. (أبو بكر السرخسي، ص 170 - 171) وهو بذلك يضم صوته لما قرره سلفا أبو عثمان ابن جني من اللغويين.

ويسلك بنا صاحب المعتمد في أصول الفقه مسلكا متدرجا لإثبات وجود كلا النوعين في فصل خاص عنونه بـ:"في إثبات الحقيقة والمجاز وفي حدها"؛ حيث قال: أما إثباتهما في اللغة فظاهر في الجملة، لقول أهل اللغة: هذا الاسم حقيقة، وهذا الاسم مجاز. (أبي الحسين المعتزلي ، 1964، ص 16) وهو بذلك يتبع طريقة المعتزلة في الانتقال من إثبات المجاز في اللغة، وإرغام الخصم على التسليم به في القرآن، لكونه نزل بلسان عربي مبين.

وهذا المسلك الاستدلالي واضح في إجابة " أبي حامد الغزالي" عن سؤال: هل في القرآن مجاز؟ بقوله: "ألفاظ العرب تشتمل على الحقيقة والمجاز، كما سيأتي الفرق بينهما. والقرآن يشتمل على المجاز، خلافا لبعضهم، فنقول: المجاز اسم مشترك قد يطلق على الباطل الذي لا حقيقة له، والقرآن منزه عن ذلك، ولعله الذي أراده من أنكر اشتمال القرآن على المجاز. وقد يطلق على اللفظ الذي تجوز به عن موضعه الأصلي، وذلك لا ينكر في القرآن مع قوله تعالى: "وسئل القرية التي كنا فيها والعير".وقوله: "جدار يريد أن ينقض". (أبي حامد الغزالي، المستصفى، ج 1، ص 158)

هذا المذهب الذي اعتمده الغزالي؛ هو نفس ما تبناه الآمدي الذي يحتج بكون هذه المسألة قضية خلافية عند الأصوليين بقوله: "اختلف الأصوليون في اشتمال اللغة على الأسماء المجازية؛ فنفاه الأستاذ أبو إسحاق ومن تبعه، وأثبته الباقون، وهو الحق. (علي بن محمد الآمدي ، الإحكام، 2003، ج 1، ص 67 - 69) وحجة المثبتين أنه قد نقل عن أهل اللغة إطلاق الأسد على الإنسان، والأمر نفسه ينسحب على القرآن الكريم، مشيرا إلى كون النفاة هم من أهل الظاهر والرافضة، مناقشا الأدلة التي أشار إليها الإمام الغزالي سابقا، فلا يمكن للجدار أن تكون له إرادة وهو أمر يدخل ضمن الاستعارة، وكذلك سؤال القرية للعير الذي يندرج ضمن المجاز المرسل، لذكر المحل وإرادة الحال فيه، وهي نماذج للمجازات في كتاب الله تعالى.

وليس إثبات المجاز والاستعارة في اللغة والقرآن موقف من سبق ذكرهم فقط، بل نجد صاحب "منهاج الوصول إلى علم الأصول" يشير إليه في سياق الرد على أبي بكر محمد بن داود الأصفهاني الظاهري الذي رفض احتواء القرآن والحديث على المجاز بدعوى لما فيه من الالتباس، لكن القاضي البيضاوي يرى أنه لا التباس مع وجود القرينة. (علي بن محمد الآمدي ، منهاج الوصول، 2008، ص 95) وهو ما يؤكده صاحب "كتاب تيسير التحرير" بكون المعاني المجازية مرادات لا مدلولات،(أمير باد شاه الحسني ، تيسير التحرير، ص 82) لذا كان الانتقال إليها مرتبط بوجود القرينة، لكون مراد المتكلم من اللفظ لا ندركه إلا من خلال ما يشير إلى المعنى، والقرينة تعين على ذلك.

وارتباطا بموضوع القرينة؛ نجدها تحولت إلى دليل إثبات للمجاز عند صاحب المحصول "أبي بكر الرازي" الذي يدافع عن وجود المجاز في القرآن، راداً على من نفاه من القرآن واللغة بكون دلالة الألفاظ على المعنى الحقيقي لا يحتاج إلى قرينة، وإلا لكان المجاز حقيقة، وهو أمر يرفضه الرازي ويصف بالخلل والتناقض والغلط. (فخر الدين الرازي ، المحصول،ج 1، ص 322) فهو يجعل من القرينة وسيلة تفريق بينهما، وإلا لكان الكلام عبثا.

وفي سياق الإثبات يشير صاحب"منتهى الوصول والأمل في علمي الأصول والجدل" ابن الحاجب إلى وجود المجاز والاستعارة في اللغة والقرآن، وهو أمر في اللغة ظاهر، لكون وصف الشخص بالأسد سيكون نوعا من العبث، ولما عرفت الحقيقة من المجاز، ولكانت القرينة لا ضرورة لها، ولحصل الارتباك والخلل في الفهم، وكذلك الأمر في كتاب الله حين رد على الظاهرية بقوله: المجاز في القرآن خلافا للظاهرية لنا "ليس كمثله شيء"،و"اسأل القرية"،و"جدار يريد أن ينقض"، فأتي

بزيادة ونقصان واستعارة. (جمال الدين بن الحاجب، منتهى الوصول والأمل، 1985، ص 23) ومراد ابن الحاجب أن الأمر واضح لا حاجة للخلاف فيه، ولتوارد الأدلة الدالة على ذلك.

المطلب الثاني: نفاة المجازوالاستعارات في القرآن الكريم:

ولكن ما اعتبره ابن الحاجب جليا واضحا، فهو ليس كذلك عند النفاة؛ حيث استدلوا على موقفهم بعمل من كان لهم السبق في التأليف، ووظفوا المجاز بمعنى الاستعمال والتفسير، وهذا المعنى يتكرر عند أول مصنف في المجاز، وهو " أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي" في كتابه "مجاز القرآن"؛ حيث كان يستعمل كلمة "مجاز" في مصنفه كثيرا، كما في تفسيره لقوله تعالى: "وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى"، بقوله: مجازه: وما ظفرت ولا أصبت، ولكن الله أيدك وأظفرك وأصاب بك ونصرك، ويُقَال: رمى الله لك، أي: نصرك الله وصنع لك. (أبو عبيدة معمر بن المثنى ، مجاز القرآن، 1951، ص 244)

وكل من صنف بعد أبي عبيدة كانوا على علم بذلك؛ حيث يصرح صاحب "تلخيص البيان في مجازات القرآن" بذلك في قوله: "وبهذا كان أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ هو أول مصنف عربي استعمل لفظتي المجاز والاستعارة على نحو يقرب مما قصد بهما عند البلاغيين. فهو لا يريد بكلمة المجاز ذلك المعنى الذي قصده أبو عبيدة بالتفسير، لكنه يريد الشيء المقابل للحقيقة". (الشريف الرضي ، تلخيص البيان، 1955، ص 10) ففي ذلك إشارة عندهم إلى كون الأمر مستحدث، وهو عند النفاة يبرر الرفض، لكونه ليس مما درج عليه الأولون.

وممن عُرف برفض التام للمجاز في القرآن واللغة؛ نجد "أبا العباس ابن تيمية" الذي يسرد أدلة يدعم بها موقفه، من جملتها عدم تطرق الأصوليين الأوئل لهذا الموضوع حين قال: فمعلوم أن أول من عُرِف أنه جرّد الكلام في أصول الفقه هو الشافعي، وهو لم يقسم الكلام إلى حقيقة ومجاز. بل لا يعرف في كلامه مع كثرة استدلاله وتوسعه ومعرفته الأدلة الشرعية أنه سمى شيئا منه مجازا، ولا ذكر في شيء من كتبه ذلك، لا في الرسالة ولا في غيرها. (تقي الدين بن تيمية ، الحقيقة والمجاز، 2002، ص 10)

وبالعودة إلى كتاب "الرسالة" للشافعي؛ نجد ما ينافي التقسيم المذكور عند المثبتين، لأنه يمر على ما يستدلون به على المجاز ولا يقول فيه ذلك، فقد بواب باب سماه: بيان ما نزل من الكتاب عام الظاهر يراد به كله الخاص، ثم استدل بقوله تعالى:" الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعلوا لكم فاخشوهم ". ثم علق على ذلك بقوله: والعلم يحيط أنه لم يجمع لهم الناس كلهم، ولم يخبرهم الناس كلهم، ولم يكونوا هم الناس كلهم. (محمد بن إدريس الشافعي ، الرسالة، 1940، ص 58) وهذا بحسب القائلين بالمجاز هو: مجاز مرسل قائم على ذكر الكل وإرادة الجزء. ويؤكد الطرح السابق في نفي المجاز عقد الشافعي لباب سماه: باب الصنف الذي يبين سياقه معناه، ولم يذكر قرينة ولا مجازا.

وفي كلام ابن تيمية ما يشير إلى مسألة الاستعمال السالفة الذكر حين قال: إذا تبين هذا فيقال له: هذه الأسماء التي ذَكَرْتَ مثل لفظ الظهر، والمتن، والساق، والكبد، لا يجوز أن تستعمل في اللغة إلا مقرونة بما يبين المضاف إليه، وبذلك يتبين المراد. (تقي الدين بن تيمية ، الحقيقة والمجاز، 2002، ص 39) وهو بذلك يَرُدُّ على من جعل إضافة هذه الكلمات إلى غيرها هو علامة المجاز، لأن الخمسة ليست حقيقة في الخمسة مجازا في الخمسة عشر بحسب قوله.

ولم يكتف ابن تيمية بما سبق في نفي المجاز جملة وتفصيلا، بل سلك مسلك المناطقة في موقفه من قضية المجاز؛ حيث قال في معرض الرد على من قسم اللغة إلى حقيقة ومجاز بقوله: "إن هذه الأسماء إما أن تكون حقيقية أو مجازية: إنما يصح إذا ثبت انقسام الكلام إلى حقيقة ومجاز...إذ دخول هذه الألفاظ في أحد النوعين فرع ثبوت التقسيم، فلو أثبت التقسيم بهذا كان دورا...وهذا محل النزاع، فكيف تجعل محل النزاع مقدمة في أثبات نفسه وتصادر على المطلوب!". (تقي الدين بن تيمية ، الحقيقة والمجاز، 2002، ص 15)

ومما استدل به النفاة لوجود المجاز بأقسامه المختلفة؛ اضطراب المثبتين للمجاز في تحديد أقسامه وما يندرج فيه، ولا أدل على ذلك ما ساقه صاحب "فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت"،حيث أشار إلى تعريف الحقيقة والمجاز، ثم عمل على بيان ما يندرج في المجاز من أقسام، ساردا بذلك اختلاف الأصوليين في تحديدها؛ حيث جعلها صاحب المنهاج وصاحب المحصول اثنا عشر نوعا ،(فخر الدين الرازي ، المحصول،ج 1، ص 323) في حين يجعلها صاحب المختصر خمسة: المشاكلة، المشابهة، الكون فيه، الأول إليه، المجاورة. لكن في حاشية السيد على المختصر هي خمسة وعشرون نوعا. (عبد العي السهالوي ، فواتح الرحموت، 2002، ص 168) ويعلق على ذلك صاحب "فواتح الرحموت" بأن ذلك من باب رد الإجمال والتفصيل، وليس هناك تناقض، لأن علماء الأصول قد حصروا الأنواع في المشابهة والمجاورة، وهو شبيه بحصر علماء البيان المجاز في الاستعارة والمجاز المرسل.

وسيرا على خطى أستاذه "ابن تيمية"؛ يتناول ابن القيم موضوع المجاز من وجهة نظر عقدية صرفة، ويعتبر المجاز واحدا من أدوات هدم الدين، جُعِلَتْ طريقا لتأويل القرآن على الوجه الذي يخدم معتقدات المحرفين لصفات الله تعالى،(ابن قيم الجوزي ، الصواعق المرسلة، 1412 هـ، ج 1، ص 632) بل ويؤكد ابن القيم على كون دلالة الأدلة ليست متوقفة على احتمال الخصوص أو المجاز أو النقل أو الاشتراك، كما يرى المثبتين، لأن الحقيقة أصل، والأصل مقدم على الفرع إذا هذا الفرع موجود أصلاً.

وارتباطا بموقف الرفض للمجاز في اللغة والقرآن؛ نجد أكثر من استدل على كون الاستعارة وبقية المجاز مجرد استعمالات عرفتها العرب هو صاحب "أضواء البيان"، فهي ليست على غرار ما تصوره البلاغيون وبعض الأصوليين؛ حيث قام بدحض حجج القائلين بالمجاز في القرآن، منطلقا من استدلالهم بكون القرآن نزل بكلام العرب لقوله تعالى: "إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون"، ومن العربية استعمال المجاز، فكل ما عرفته العرب في تخاطبها هو في كتاب الله، لأن القرآن خاطبهم بلغتهم، فيكون استدلالهم بالعموم الذي يشتمل على الخصوص، من باب عموم الشيء لأنواعه وأقسامه.

ومن هنا؛ سيحاول الشنقيطي سرد نماذج متنوعة من أرفع ما عرفته العرب من الأساليب البلاغية، ليكشف استحالة وجودها في القرآن لكونها كذب صراح، مؤكدا أن الموضوع المتنازع حوله محل خلاف عند الأوليين كالإسفريني وأبي علي الفارسي، (محمد الأمين الشنقيطي، منع جواز المجاز، ص 5) ومن الأمثلة الدالة على بعض المجازات في لغة العرب، قول أبي البيداء:

وما ليَ انتصارٌ إنْ غدا الدهر جائراً عليَّ، بلى إنْ كانَ مِن عندكَ النّصرُ

ففي البيت استعارة صفات لغير صاحبها، وهي جور الدهر، وهو لا يملك النصر والهزيمة، كما يتضمن البيت أسلوب الرجوع، وهو لا يجوز في كتاب الله، رغم كونه من بليغ البديع عندهم، ومثله حسن التعليل في قول المتنبي:

لَمْ تحكِ نائلَكَ السحابُ وإنَّما حُمَّتْ به فصبيبُها الرُّحضَاء

وقوله:

وَمَا به قَتلَ أَعَادِيه ولكنْ يَخْشَى إِخْلاَفَ مَا تَرْجُو الذِّئابُ

فتعليل المتنبي لسقوط الغيث بالحمة في السحاب غير صحيح، كما أنها ليست في منافسة لسيف الدولة،والقتل لا يكون من باب وفاء العهد وعدم إخلافه حتى لا تجوع الذئاب، وبذلك يكون قتله لهم بعيدا عن حظ النفس والانتقام، بل هو كرم منه وشهامة، وهو أمر يدخل ضمن الكذب. ويقاربه حسن التعليل أسلوب الإغراق في قول أبي نواس:

وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشّرْكِ حَتّى أَنَّهُ لَتَخْشَاكَ النُّطَفُ التِي لَمْ تُخْلقِ

فهذه جملة أساليب لا يمكن تصور أن الخطاب القرآن يحتوى على نماذج منها،(محمد الأمين الشنقيطي، منع جواز المجاز، ص 10 - 14) رغم أنها من أرفع ما يندرج ضمن البديع المعنوي، لكونها مجانبة للصدق، والقرآن ليس بهزل، بل هو

كلام فصل، لتكون بالنسبة لصاحب أضواء البيان حجة على من استدل على اشتمال القرآن على طريقة العرب في الكلام، معتمد في ذلك على رد هذا الدليل من وجهين: الأول غياب ذكره عند الأولين نقلا، والثاني انتقاده عقلا، بنقض الكلية الموجبة بجزئية سالبة؛ كما هو معلوم عند المناطقة.

وفي ختام هذه الأسطر حول مذاهب الأصوليين من المجاز والاستعارة في القرآن؛ نريد التأكيد على كون تلك المواقف تخفي وارءها مذاهب عقدية من مسألة القرآن وطبيعته، كما أنها تعكس الصراع بينهم حول موضوع تأويل آيات الصفات وأسماء الله تعالى، وبقية النصوص الشرعية في كتاب الله العزيز.

وبعد التعرف على هذا الغنى الفكري حول الاستعارة في مذاهب الأصوليين، سأعمل في الأسطر اللاحقة على بيان التصور الذي تقدمه لنا نظرية الاستعارة التصورية في هذا الموضوع.

المبحث الثاني

الاستعارة من منظور اللسانيين المعرفيين

المطلب الأول: نظرية الاستعارة التصورية في اللسانيات المعرفية:

لقد شكلت الاستعارة عند الكثيرين مصدرا للخيال الشعري والزخرف البلاغي، فتم إدراجها ضمن الاستعمال اللغوي غير المعتاد؛ وهي بذلك خاصية لغوية بحتة، وليست قضية فكر وبناء عقلي، ومن هنا صارت عندهم حكرا على المقتدرين والبلغاء في اللغة. لكن الأمر خلاف ذلك بحسب اللسانيين المعرفيين، فالاستعارة حاضرة في كل أنشطتنا اليومية، فهي لست حكرا على اللغة، بل توجد في تفكيرنا، كما توجد في أعمالنا التي نزاولها بشكل مستمر، وحتى النسق التصور العادي الذي يسير سلوكنا وتفكيرنا له طبيعة استعارية بالأساس. فتصوراتنا تُبَنْيِنُ ما ندركه وتبنين الطريقة التي نتفاعل مع العالم بواسطتها، الشيء الذي يجعل أنشطتنا المختلفة مرتبطة بشكل وثيق بالاستعارة.

وقد أشار كل من جون لايكوف ومارك جونسون (George Lakoff and Mark Johnsen) إلى هذا الوجود القوي للاستعارة في حياتنا وسلوكنا اليوم، بل وسقوط هذه الاستعارات في تخاطبنا، وتحولها إلى سلوك لغوي حي، حتى تمّ اعتبار اللغة وسيلة مهمة للكشف عن كيفية التي يشتغل بها نسق التفكير عند الإنسان. وذلك لكون الجزء الأكبر من النسق التصوري العادي استعاري بطبيعته عند الإنسان. (George Lakoff and Mark Johnsen, 1980, p4)

وقد لاحظ الدارسون لسلوك الناس اللغوي أنهم يقارنون بين الموضوعات، ويشرحونها بناء على تجاربهم، فالأشياء مترابطة عندهم، وليست معزولة عن بعضها البعض، بل تنتظم في مقولات تتقاسم عناصر المجموعة فيها الخصائص نفسها، ويكون هذا التقاسم ذا طابع تجاوري أو تشابهي. وحديثنا عن علاقة التشابه يحيلنا مباشرة على الاستعارة، بوصفها وسيطا بين الذهن البشري وما يحيط بنا من موجودات في العالم الخارجي؛ حيث يتجاوز الإنسان باستعمالها الكثير من العوائق التواصلية.

وعليه؛ فالاستعارة حسب اللسانيين المعرفيين وسيلة أساسية تساعد الإنسان على التعبير من زوايا غير مسبوقة، كما توفر له ابتكار الترابطات، وملاحظة التشابه فيما ظاهرة الاختلاف، فتكون وسيطا يمكن الكائن البشري من تطوير المعارف وابتكار التصورات (عبد الإله سليم، 2001، ص 57)

وهذا التجريد للمحسوسات في صور استعارية عامة، هو أمر اشتغلت عليه الدراسات النفسية المعرفية مع الجشطلتية عند محاولة تفسيرهم لعلاقة الذهن بالبدن، والإشكالات المرتبطة بذلك؛ حيث من المفترض أن تختزل المعلومات الذهنية عندهم في بعض تشكلات الحالات الذهنية، ومنه فالعالم المسقط ليس مؤلفا من الحالات الدماغية، بل هو جملة

من التجارب، ومع ذلك لا أحد يعرف ـ بحسب الجشطلتيين ـ ما هي التجربة، ولا كيف تنقل تشكلات حالات الدماغ داخله بواسطة آلية الإسقاط. (راي جاكندوف ، 1983، ص 95)

وهذه التساؤلات ـ عند الجشطلتيين ـ شكلت المنطلق عند علماء اللسانيات التصورية لبيان الكيفية التي يعيد من خلالها الإنسان بنية العالم في شكل تعابير لغوية، هي في غالبيتها ذات طبيعة استعارية، فكل التعابير اللغوية تسير على النسق نفسه، بل الفعل الاستعاري كان حاضرا حتى في بناء آليات التفسير التي استعان بها هؤلاء اللسانيون في مقاربتهم للفعل اللغوي عند الإنسان، وتفسيرهم لمستويات الدرسات اللسانية.(Ray Jackendoff, 1981, p 96)

وبناء على هذا التصور للعالم الذي نعيد تشييده بواسطة استعارات ذهنية حسب جور لايكوف 1987 – 1990 ، وكذا مارك جونسون، والتصورات التي قدمها تورنر 1989، تلعب الاستعارة دورا كبير في تأسيس مفاهيمنا المجردة غير الملموسة انطلاقا من عالم محسوس مدرك معاين. (Ray Jackendoff, 1992, p 60) و هذا التصور اللساني المعرفي مع الدلالة التصورية لم يقف عند حدود اعتبار الاستعارة آلية لنفسر من خلالها طريقة اشتغال ذهن الإنسان، والطريقة التي ينظر من خلالها الكائن البشري للعالم، وسقوط هذه التصورات النظرية في صورة استعارات ناتجة عن خطاطات يُبنين من خلالها الإنسان العالم وينظمه؛ بل تجاوز الأمر ذلك إلى تفسير قواعد اللغة نفسها، (Ray Jackendoff, 2002, p 78) كما نجد حضورا للنموذج الاستعاري في مجالات كثيرة في جوانب كثير ة من حياتنا.

إذن نخلص إلى كون اللسانيين المعرفيين يتحدثون عن العلاقة صورة ـ خطاطة بوصفها جوهر الفهم الإنسان للأحداث، وكذا الامتدادات الاستعارية لها في شكل مفاهيم أكثر تجريداً.(JEAN MATER MANDLER ,2004, p 78) فالجانب المميز للاستعارة، هي تلك القدرة على تحويل غير المحسوس المجرد إلى شيء ملموس، ومنه فهي قابلة للتوظيف في أي مجال دلالي، (Ray Jackendoff, 1983, p 209) ويمكننا توظيفها للتعبير عن مجال تصوري عبر استحضار سمات وخصائص مجال تصوري آخر.

هكذا تتجاوز اللسانيات المعرفية مع الدلالة التصور العثرات التي عرفتها غيرها من الدراسات اللسانية السابقة، والتي بقية حبيسة مسوى من مستويات الدراسة اللسانية، فالإنسان أثناء المحادثات ينتج بنيات جديدة، بل إن تلك البنيات تحجب عنا كثير من الغموض، (JOHN R. Anderson , 2020, p 1068) ولا نقف عند تفاصيلها بالقدر الذي ترسخ في أذهاننا المعنى الكلي في شكل صور استعارية تجمل المعنى المراد، وهو بالضبط ما روجت له التصورات الجشطلتية سابقا.

وهكذا؛ فإنّ الدلالة التصورية يعتقد أصحابها أن التجربة الجسدية هي منطلق بناء العالم الداخلي بكل تعقيداته، مع وجود مستويات عديدة للتجريد قائمة على الخطاطات والتعميم والمزج المفاهيمي، وهو ما يتم تلخيصه في شكل استعارات، (Ronald W.Langacker , 2017, p 409) والتي نقف بتأملها على بعض الأسس والمبادئ العامة للنظرية اللسانيات المعرفية، وتصورها لطبيعة النسق اللغوي بوصفه نسقا معرفيا، هو في أصله تجليات للعمليات الذهنية، لكون البنيات اللغوية على اختلاف مستوياتها تقوم على المبادئ الإدراكية التصورية نفسها، (سمير عابي ، 2021،العدد 1، ص 26) وهي المسؤولة عن تنظيم اشتغال الجهاز المعرفي العام لدى الإنسان في تفاعل مع المحيط والذات وقوانين العالم، وانطلاقا من عدة مبادئ كالجسدية والتعميم والانتقائية، ونوع من التأليفية؛ حيث لا تتم عملية الاشتقاق الاستعاري وفق بنينة شاملة عامة لكل مكونات المجال المصدر وإسقاطها في المجال الهدف، بل تعمل على انتقاء مظهرا من مظاهر المجال المصدر والتعبير عنه ومقايسته استعاريا، (عبد المجيد جحفة ، 2018، ص 55) وهو ما يفسر تعدد الاستعارات المرتبطة بالمجال المصدر، فنجده يبنين عدة مجالات أهداف، وهي أمور سنحاول الوقوف عليها في استعارات الحياة بالقرآن الكريم.

المطلب الثاني: استعارات الحياة في القرآن الكريم :

بعد التعرف على تصور اللسانيين المعرفيين لمفهوم الاستعارة بوصفه إطارا نظريا سأنطلق منه لتتبع تجليات استعارات الحياة في كتاب الله تعالى، فإني قبل ذلك سأؤكد على مسوغات تناول هذه الاستعارات من منظور لساني معرفي، والتي تتلخص في كون الخطاب الشرعي الغرض منه هو إفهام المكلف الذي يتوجه إليه النص القرآني، لذا فهو يُضَمِّنُ معهودات المتلقين في خطاباتهم والمشترك بينهم، ومن بين الأدلة التي تؤكد ذلك قوله تعالى:"ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ءآعجمي وعربي، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء"، فنزوله باللغة العربية فيه حكمة عظيمة ونعمة على خلقه، كما أن قوله تعالى:" وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيدة وهو أهون عليه"؛ يفهم من ظاهرة الآية الكريمة أن الإعادة أسهل على الله من البدء، وهو أمر غير صحيح في حق الذات الإلهية، وإنما ترسخ عند الناس كون الإعادة أسهل من فعل الشيء ابتداء على غير منوال سابق، لذا يخاطبهم الله تعالى بما يفهمونه، وما اعتادوه في كلامهم، ودرجوا عليه في أعمالهم، مما لا يتناقض ومقاصد الشرع، ولا يخل بطبيعة النظم القرآني، ولا ينقص من قدره، وهو يتناسب مع عالمية الدعوة الإسلامية، ومخاطبتها لكل الأمم.

وبالعودة إلى استعارات الحياة في القرآن الكريم؛ نجد كتاب الله غالبا ما يربطها بالأشياء الملموسة المحسوسة بنقل خصائص مجال غني خبره الإنسان في نشاطاته اليومية ، وهو الأمر الذي يدركه الناس حال ملاحظاتهم لتعاقب الفصول الأربعة من نزول للغيث، واخضرار للأرض، ثم يُبْسِ النبات، فيزول ما على ظهر الأرض كأن لم يكن مصداقا لقوله تعالى:" إنما مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما ياكل الناس والانعام، حتى إذا أخذت الارض زخرفها زاينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهار فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس، كذلك نفصل الايات لقوم يتفكرون"، وقوله عزو جل:"واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كما انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا"، بالإضافة إلى قوله سبحانه وتعالى في سورة الحديد: " اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور "؛ حيث حاولت الآيات الكريمات ربط الحياة بظواهر طبيعية من محيط الإنسان، له احتكاك مباشر بها، خبرها في حياتها اليومية، وتراكمت بسبب التفاعل معها والمشاهدات لها تجارب محسوس، ترسخت من خلالها في ذاكرته جملة من المعطيات والصور والنتائج حولها مع توالي وتعاقب الملامسة.

والتقنيات التي اعتمدتها الآيات الكريمات في تجسيد معنى الحياة وتلخيصها في ذهن المتلقي للخطاب القرآني، هي نفسها ما تم التنظير إليه في نظرية الاستعارة التصورية مع روادها الأوائل وكل من ساهم في وضع دعائمها أو تطويرها على غرار "إلينور روش Eleanor Rosch: 1977 "، و"جون ليكوف George Lakoff:1982 "، و" مارك دجونسون:Mark Johnsen "، "تالمي Talmy : 2000 "؛ حيث تلتقي أعمالهم ـ رغم اختلافها في بعض الآليات المنهجية ـ في كونها تعتبر اللغة ظاهرة نفسية ذهنية، لا يمكننا فهمها إلا في علاقتها بباقي الظواهر الذهنية الأخرى المرتبطة بمختلف الاستراتيجيات الإدراكية والمعرفية عند الإنسان في صلته بالعالم، (سمير عابي ، 2021،العدد 1، ص 26) والبنية الثقافية المحيطة به، والتي تؤثر في قراراته ونظرته لذاته وللغير، كما تجعل من الممارسة التجريبية والمعطيات الثقافية أساسا لعملية تمثل النماذج الثقافية، والأطر المرجعية التي يختزنها الإنسان نتيجة للتفاعل مع الموجودات، ويستحضرها لفهم المستجدات، واسقاط خصائصها على مجالات أخرى قصد التعبير بالأوضح عن الأخفى، وهي ما تجسده الاستعارات المرتبطة بالحياة في الآيات الكريمات السالفة الذكر.

وإذا ما غضضنا الطرف عن طبيعة الصورة البيانية من وجهة نظر بلاغية تقليدية؛ فإننا سنتجاوز تبعا لذلك النقاش حول التشبيهات الواردة في الآيات:

- الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما ياكل الناس والأنعام؛
- الحياة الدنيا كما انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح؛
- الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار؛

كما سنتجاوز النقاش الدائر حول الآيات السابقة في مجال ضرب الأمثال، وسنركز عليها بوصفها تجليات لاستعارات لغوية تجسد لنا عملية بنية مجال هدف انطلاقا من مجال مصدر؛ حيث يتسم المجال المصدر بغناها وكثرة المعطيات المرتبطة به، لكون الإنسان يخبره ويلامسه بشكل يومي، وهو ما يتجلى في "اللعب" و"النبات" لصفة الحسية فيهما، في مقابل المجال الهدف الذي يجسده مفهوم الحياة؛ حيث يتسم بالتجريد وعدم وجود تعريف جامع مانع لها،كما هو متعارف عليه عند المناطقة.

ونظرا للتجريد الذي يكتنف مفهوم الحياة؛ كان من اللازم تقريبه للمخاطب باستحضار مجالات تحضر بقوة في محيط الإنسان، فتتلخص عندنا استعارتنا جليتان في الآيات الكريمات: استعارة "الحياة لعب"، واستعارة "الحياة نبات"؛ حيث يمكننا رصد بعض التوافقات التي سهلت عملية إسقاط خصائص هذين المجالين على مفهوم الحياة كما سنوضحه تاليا:

بالنسبة لاستعارة "الحياة نبات"، فإن الإنسان بشكل مستمر يحتك بالأرض وبصور عديدة منها الأنشطة الفلاحية، وبالتالي فهو يعرف أهمية الماء بالنسبة للأرض والنبات، كما خبر دورة الفلاحة وحاجيات الأرض الأخرى في علاقتها بالفصول المختلفة، والمناسب لكل منها، كما أن الإنسان يعرف أن النبات الذي ينبت بشكل عشوائي دورة حياته قصيرة تبدأ بالظهور مع بوادر الغيث القليلة، وهي معرضة للزوال مع أقل تغير مناخي جاف أو نقص في التساقطات، فيكون عرضة للجفاف والهلاك، لتترسخ عندنا جملة من التوفقات بين المجال المصدر "النبات" والمجال الهدف "الحياة" فيما يلي:

الشكل 1: الاستلزامات الاستعارية بين مجالي النبات والحياة

النبات (المجال المصدر)	التوافقات	الحياة(المجال المصدر)
هناك بداية كالزرع	←	نقطة بداية كالولادة
ينمو	←	الزمن في تقدم دائم
يحتاج للماء	←	الحاجة لأسباب البقاء
قد يتعرض للضرر	←	وجود منغصات كالمرض
هناك نقطة نهاية كالحصاد	←	الموت

أما بالنسبة للاستعارة الثانية، وهي:" الحياة لعب"، فإن الإنسان قد مارس اللعب في حياته بصور متعددة، سواء تعلق الأمر بما ترسخ عنده في مرحلة الطفولة على اعتبار اللعب ميزة عند الأطفال وحق فطري، وميول يكشف عن النمو الصحي عند هذه الفئة، كما يحضر عند الكبر حال ملاعبة الصغار والتودد إليهم، وربما يحضر عند الفئتين صغارا وكبارا حال عمليات التعلم، كما هو منصوص عليه في الكثير من الكتب المنظرة للعملية التعليمية التعلمية، فيما يعرف ببيداغوجيا اللعب، ليصبح اللعب آليات لاكتساب المعارف، والدفع بالمتعلم إلى الانخراط في جماعة القسم، وقنطرة للتعرف على المفاهيم والمعارف الجديدة.

كما يحضر اللعب في شكل هوايات فردية عند جميع الأعمار الممكنة لإثبات الذات والتخلص من ضغوطات الحياة، بل تحول في يومنا إلى مهن كان منطلقها ذلك اللعب العفو الساذج بداية، فتُكتشف المواهب، ويتم تطويرها واستغلالها، لكن

عملية الاشتقاق الاستعاري في حالة استعارة: "الحياة لعب" صِيغت بصورة واضحة وفق مبدأ التأليفية، لكونها لم تتم وفق بنينة شاملة عامة لكل مكونات المجال المصدر (اللعب) وإسقاطها في المجال الهدف (الحياة)، فتم العمل على انتقاء مظهرا من مظاهر المجال المصدر والتعبير عنه ومقايسته استعاريا، (عبد المجيد جحفة ، 2018، ص 55) الشيء الذي يفسر لنا مظاهر الانتقائية في هذه الاستعارة، لكوننا في الاستعارات الأنطلوجية كما هو الحال هنا؛ نجد التشخيص مَقُولة عامة تغطي عدد كبيرا ومتنوعا من الاستعارات، لكنها تنتقي مظهرا لشيء أو طرقا مختلف للنظر إليه. وعلى الرغم من الاختلاف بينها، فإنها تشترك في تمثل ما تصدق عليه في الواقع المحسوس، وتسمح لنا بإعطاء معنى للظواهر في العالم عن طريق ما هو بشري (اللعب مثلا)، وبالتالي تسير قابلة للفهم بناء على محفزاتنا وأنشطتنا وخصائصنا. ويصبح النظر إلى المجرد عن طريق ما هو بشري ذا سلطة تفسيرية تشكل وسيلة لإعطاء المعنى، ومنه ننتج تعابير لغوية متسقة نوضح من خلالها تلك المجردات كربط الخسارة بالتضخم حسب تعبير جون لايكوف ومارك جونسون . (جون لايكوف ومارك جونسون ، 2009، ص 46) وهو الحاضر عندنا هنا حال ربط الحياة باللعب، لنقف على جملة من التوافقات سهلت عملية النسخ الاستعارة بين المجالين، وإسقاط خصائص الأول على الثاني، كما هو موضح أسفله:

الشكل 2: الاستلزامات الاستعارية بين مجالي اللعب والحياة

اللعب (المجال المصدر)	التوافقات	الحياة(المجال المصدر)
بداية اللعب	←	الولادة والخروج إلى الوجود
له مدة زمنية محدد	←	العُمُر محدود
يحتاج إلى قانون وإلا تحول لفوض	←	الحاجة لأسباب البقاء وضوابط التعايش
اللعب ممتع ووقته سريع	←	الحياة تمر بسرعة مع التقدم في السن
اللعب لا يستمر إلى ما لا نهاية	←	الحياة لها نهاية (الموت)

فهذه التوفقات بين المجالين سهلت عملية نقل خصائص المجال الذي يتمثل في "اللعب"، وإسقاطها على المجال المصدر المتمثل في "الحياة"، الشيء الذي ساعد على تمثل الحياة بوصفها مفهوما عاما مجرد، انطلاقا من مجال محسوس يخبره الإنسان باستمرار عن طريق الاحتكاك به هواة ومهنة وترفيها.

هذه الاستعارات القرآنية الكبرى التي تمت الإشارة إليها سابقا، نجدها حاضرة بقوة في القرآن الكريم، وهو ما تكشف عنه بعض التعابير والمفردات في كتاب الله تعالى، كما هو موضح في الجدول أسفله:

الجدول 1: تجليات استعارتي "الحياة لعب" و"الحياة نبات" في القرآن الكريم

"الحياة نبات"	"الحياة لعب"
فأصبح هشيماً تذروه الرياح	الحياة الدنيا لعب / لهوٌ / زينة
فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس	تفاخر بينكم
أعجب الكفار نباته / يهيج فتراه مصفراً	تكاثر في الأموال
يكون حطاماً / أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَت /	ما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور
زهرة الحياة الدنيا	كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ
	فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا

فهذه التعابير والمفردات القرآنية وغيرها كثير مما تناول الحياة في علاقتها باللعب أو ارتباطا بالنبات، هي كثيرة في القرآن الكريم، ولم أقصد تتبعها جميعا، لكن اخترت ما يؤكد الربط بينهما وإسقاط خصائص المجالين المذكورين على مجال الحياة، وهو ما يفسر وجود تعابير استعارية ترتبط بهما في حياتنا اليومية:

الحياة لعب: إنه يلعب بحياته / لعبت السيف بالرؤوس / لعبة مميتة / يقتل مستقبله / يتلاعب بأجيال الغد / ولادة لعبة رياضية جديدة / موت رياضات تقليدية من التراث / عودة الحياة لقطاع الرياضة / انتعاش سوق اللعب / لعب القدر بحياتهم؛

الحياة نبات: الحياة يابسة في بيتنا / ألا أقوم فأقطف لكم روحه / لقد حان قطاف رؤوسكم / يكونوا لها في اللقاء طحينا / تنمو نفوسهم / نغرس قيم الحياة / قتل القيم المستقبلية / ربيع الحياة / خريف العمر / زهرة العمر؛

فكل ما سلف ذكره من هذه الاستعارات؛ يؤكد مظاهر الربط الاستعاري بين مفهوم "الحياة" ذي الطبيعة المجردة، بمجاليين حيويين وهما مجالي: "اللعب" و"النبات"، الشيء الذي يفتح إمكانية تناولها، والتعامل مع هذه الاستعارات من منظور لساني معرفي تصوري، دون الإخلال بخصائص النص القرآن، ودون المساس بمقاصده من الإفهام، وإرشاد الناس إلى مصالحهم في الدنيا والآخرة، رغم كون هذا الإطار النظري موجه لدراس آليات اشتغال البنيات الذهنية البشرية أساسا، وتجلياتها في سلوكاتنا اليوم، ومن جملتها الظواهر اللغوية.

خاتمة:

وخلاصة القول، فإن مفهوم الاستعارة قد شكل أرضية خصبة لدراسات مختلفة المشارب والمنطلقات، سواء تعلق الأمر بالمنجز البلاغي العربي أو الغربي، أو الدراسات اللغوية في إطار فقه اللغة وعلومها، إضافة إلى المقاربة الأصولية التي تناولت هذا المفهوم من عدة جوانب في مباحث الألفاظ وأقسام الكلام وشروط المجتهد والمفتي، كما هو مسطر في كتب أصول الفقه.

وقد ركزنا في هذا البحث على مساهمات علماء الأصول في إغناء النقاش الدائر حول المفهوم قيد الدراسة، مشيرين إلى ذلك الخلاف الذي نشب بينهم حوله نفيا وإثباتا تبعا لدراستهم لمفهومي "الحقيقة" و"المجاز"، موضحين بعض الأسباب العقدية الحقيقية الكامنة وراء خلافهم المذكور، وأثر ذلك في فهمهم وتأويلهم للخطاب الشرعي، وحصر مواقفهم المتعلقة بذلك، مع تلخيص الحجج المرتبطة بكل موقف على وجه الإجمال، وبعض الردود التي حاول بها كل فريق تقويض ودحض البناء الحجاجي للفريق الآخر.

وبالإضافة إلى العودة لكتب الأصول والوقوف على المنجز الأصولي لعلمائنا في هذا الباب، فقد حاولت استحضار إطار نظري لساني معرفي حديث، وعملت على بيان التصور الذي تقدمه لنا "نظرية الاستعارة التصورية" حول مفهوم الاستعارة من وجهة نظر تصورية، مع الوقوف على المساهمات التي يمكن لهذه النظرية اللسانية أن تقدمها لنا في فهم وتأويل الاستعارات القرآنية، و الكشف عن حدود هذا الدور الذي يمكنها أن تلعبه فهم الخطاب الشرعي، مراعيا بذلك طبيعة وخصوصية النص القرآني.

ومن أجل ذلك فقد قمت باستغلال هذا الإطار النظري اللساني المعرفي لمقاربة استعارات الحياة في القرآن الكريم، مع التأكيد على صلاحية هذا الإطار لتفسير الكثير من الظواهر اللغوية، وإمكانية الاستفادة منه لتقريب وجهات النظر الخلافية حول بعض مضامين الخطاب الشرعي، على أساس أن النصوص الشرعية موجهة للناس على الرغم من اختلاف ثقافاتهم واهتماماتهم، فلابد أن يتضمن هذا الخطاب الإلهي ذلك المشترك بين كل الفئات والأجناس، بغض النظر عن الفوارق التي تميزهم عن بعضهم البعض، الشيء الذي يؤكد على عالمية الدعوة الإسلامية من جهة، وفي الوقت نفسه يترسخ عندنا جانب

من الجوانب المتعلقة بمفهوم الإعجاز الذي ناقشته كتب الأصوليين واللغويين والفقهاء من جهة أخرى. وبذلك تتناسب المقاربة المقترحة مع طبيعة التحول الذي عرفته الدراسات اللسانية في باب الاشتغال على المعطيات اللغوية، ومن جملتها المعطيات اللغوية المحيلة على الاستعارة.

وقد خلصنا في نهاية هذا البحث إلى كون الاستعارة من منظور لساني معرفي لم تعد حبيسة المقاربة الجمالية للغة، بل هي عمليات ذهنية مجردة قبل أن تكون تجليات لغوية، ومنه فهي جملة من العمليات المجردة، والتي تشتغل وفق خطوات محددة، فتطلب الاستعارة – وفق هذا التصور - آليات اشتغال مضبوطة تتجلى من خلال المعطيات اللغوية والخطابات التي تتضمنها، والتي لا تخرج عن آليتين اثنتين هما:

الاشتغال وفق مبدإ التعميم على مستوى التعدد في المعاني المرتبطة بالاستعارات اللغوية داخل المجال الهدف الواحد، وتعميم النسخ من مجال مصدر واحد إلى عدة مجالات أهداف. (عبد الكبير الحسني، 2020، ص 49)

ثم الاشتغال وفق مبدإ الانتقائية: والذي يكشف لنا عن كون عملية إسقاط خصائص مجال مصدر على مجال هدف ليست خاضعت بالضرورة للتعميم، وإنما تسير وفق عملية انتقائية، من خلالها يتم التخلص من تلك السمات التي لا نحتاجها في عملية تعبيرنا عن المعنى الذي نقصده.

لتجسد هذه المبادي ذلك المسار العام للمقاربة التجريبية المعرفية التفاعيلية، والتي عملت على هدم الأسس الوضعية التي هيمنت على التفكير البلاغي، والانتقال إلى رؤية تؤمن بالتفاعل الجسدي والبيئي والثقافي مع المحيط في أفق تشييد معرفة جديدة وإنشاء لغة، (عبد العزيز لحويدق، 2015، ص 259) هي بمثابة خلاصة للتجارب وما ترسخ من خطاطات.

وهذا ما لمسناه في استعاراتي "الحياة لعب" و"الحياة نبات"، ليستحضر القرآن الكريم ما ترسخ عند الإنسان حول حقلين محسوسيين مشاهدين، ويسقطهما على مجال هدف مجرد، ليتضح بشكل جلي في ذهنية الإنسان التي تقبل بطبيعتها هذا النوع من التأليفية، فتكون الأسس التجريبية للاستعارات حاضرة بقوة لبناء النماذج، وتشييدها بشكل أكثر دقة وشمولية للعناصر المندرجة في النمط النموذجي بحسب تعبير"إلينور روش:Eleanor Rosch "، (Eleanor Rosch and Caroly B.mervis, 1975, p 574) نقلا لسماته الأكثر بروزا ووضوحا، حتى يتصور الإنسان الحياة بصورة جلية مختزلة.

ومن نتائج هذا البحث على سبيل الإجمال لا الحصر؛ نجد الآتي:

- حضور مفهوم الاستعارة في كل كتب المتقدمين على اختلاف مشاربهم ومعتقداتهم ومجالات اشتغالهم: لغة، وفقها، وأصولا، ومنطقا، وبلاغة...وغيرها؛
- اختلاف المتقدمين حول جواز حضور الاستعارات والمجازات في الخطاب الشرعي هو فرع اعتقادهم في الأسماء والصفات الخاصة بالذات الإلهية؛
- هيمنة الرؤية الجمالية للاستعارة على ما سطره القدماء الشيء الذي حجب عنهم إمكانية التقارب بين المواقف، على اعتبار مفهوم الاستعارية آلية لإنتاج الترابطات الممكنة من أجل التوضيح والإفهام بالاعتماد على المشترك الكوني المتاح والمشاع بين بني البشر؛
- استثمار الخطاب القرآني لبعض المجالات المشتركة بين المجتمعات البشرية على غرار اللعب والمشاهدات المتصلة بالنباتات، هو ترسيخ لكونية الدعوة الإسلامية؛

ومن التوصيات التي يمكن تقديمها في الموضوع ما يلي:

- ضرورة العودة للمنجز البلاغي عند المتقدمين فهما وحفظا وتمحيصا؛

- أهمية الوقوف على الاختلافات بين مواقف المتقدمين حول مفهوم المجاز وغيره من المفاهيم، وعرض هذه المواقف على نهج النبوية حيال ذلك، ومن سار على هذا النهج من الصحابة رضوان الله عليهم، وسلك مسلكهم؛
- الانفتاح على بعض النظريات اللسانية الحديثة في فهم النص الشرعي، بما لا يتعارض وخصوصيات هذه النوعية من النصوص؛
- تعميم نتائج هذا البحث على بقية الأنساق الاستعارية الكبرى في النص القرآني، مع الأخذ بعين الاعتبار مراد الشارع من هذا الخطاب المقدس؛

بيانات الإفصاح:

- **المو افقة الأخلاقية والمو افقة على المشاركة:** تم الاتفاق على المشاركة في البحث وفقاً للإرشادات الخاصة بالمجلة.
- **تو افر البيانات والمواد:** كافة البيانات والمواد متاحة عند الطلب.
- **مساهمة المؤلفين:** يتحمل المؤلفين مسؤولية كافة محتويات البحث والتحليل والمنهجية والمراجعة الكاملة.
- **تضارب المصالح:** لا يوجد تضارب في المصالح لأي طرف من خلال تصميم البحث وتقديمه وتقييمه.
- **التمويل:** لا يوجد أي تمويل مخصص لهذا البحث.
- **شـكروتقـدير:** الشـكر الجزيـل لأكاديميـة التطـوير العلمي ومجلـة المـؤتمرات العلميـة (JSC) على الـدعم والإرشـادات (/https://sdasmart.org/jsconf)

المراجع)

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع من طريق الأزرق، مؤسسة محمد السادس لنشر المصحف الشريف، المملكة المغربية . مدينة المحمدية، مطبعة فضالة . المحمدية 3 / 2016 م.
- أبو الفتح، عثمان بن جني. (1952). الخصائص. طبعة دار الكتب المصرية.
- أبو بكر، محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي. أصول السرخسي. نشر لجنة إحياء المعارف النعمانية . حيدر أباد . الدكن بالهند.
- أبو عبيدة، معمر بن المثنى التميمي. (1951). مجاز القرآن. الطبعة الأولى. مكتبة الخانجي. القاهرة - مصر.
- أبي الحسين، محمد بن علي بن الطيب البصري المعتزلي. (1964) المعتمد في أصول الفقه. الناشر المعهد الفرنسي للدراسات العربية . دمشق - سوريا.
- أبي حامد، محمد بن محمد بن محمد الغزالي. المستصفى من علم الأصول. الناشر دار الميمان. السعودية . الرياض.
- تاج الدين، عبد الوهاب بن علي السبكي. (2003). جمع الجوامع في أصول الفقه. الطبعة الثانية. دار الكتب العلمية. بيروت . لبنان.
- تقي الدين، أحمد بن تيمية. (2002). الحقيقة والمجاز. طبعة دار البصرة. الإسكندرية . مصر.
- جمال الدين أبو عمرو، عثمان بن الحاجب. (1985). منتهى الوصول والأمل في علمي الأصول والجدل. الطبعة الأولى. دار الكتب العلمية. بيروت . لبنان.
- جورج لايكوف ومارك جونسون. (2009). الاستعارات التي نحيا بها. الطبعة الثانية. سلسلة المعرفة اللسانية. دار توبقال للنشر . الرباط – المغرب.

- راي، جاكندوف . (1983). علم الدلالة والعرفانية. منشورات دار سيناترا ـ تونس 2010، سلسلة مقالات اللغويين.
- عابي، سمير. (2021). اللسانيات العرفنية – المبادئ العامة والأسس، مجلة العدوي للسانيات العرفنية وتعليمية اللغات، المجلد 1 – العدد 1.
- الشريف، الرضي. (1955). تلخيص البيان في مجازات القرآن. طبعة دار إحياء الكتب العربية . القاهرة.
- شمس الدين أبي عبد الله، ابن القيم الجوزي. (1412 ه). الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. الطبعة الثانية. دار العاصمة.
- سليم، عبد الإله. (2001). بنيات المشابهة في اللغة العربية: مقاربة معرفية ، الطبعة الأولى. دار توبقال للنشر. المغرب.
- لحويدق، عبد العزيز. (2015). نظريات الاستعارة في البلاغة الغربية: من أرسطو إلى لايكوف ومارك جونسون. الطبعة الأولى. دار كنوز المعرفة. عمان – الأردن.
- عبد العلي محمد، ابن نظام الدين السهالوي. (2002). فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت. الطبعة الأولى. دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان.
- الحسني ،عبد الكبير. (2020). الدلالة المعرفية ومشروع بناء هندسة المعنى. الطبعة الأولى. دار كنوز المعرفة. عمان – الأردن.
- جحفة، عبد المجيد. (2018). استعارات الأكل والشرب مقاربة تصورية معرفية، الطبعة الأولى. المقال منشور ضمن كتاب "مقاربات لسانية" من منشورات مختبر اللسانيات لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك. الدار البيضاء.
- الآمدي، علي بن محمد. (2003). الإحكام في أصول الأحكام. الطبعة الأولى. دار الصميعي.
- فخر الدين، محمد بن عمر الرازي. المحصول في علم الأصول. طبعة مؤسسة الرسالة . دار الكتب المصرية.
- الشنقيطي،محمد الأمين بن محمد الجكني. منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز. طبعة دار الفوائد. وقف مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية .
- أمير باد شاه الحسني ،محمد أمين المعروف. تيسير التحرير على كتاب التحرير لابن همام السكندري الحنفي. توزيع دار الباز .عباس أحمد الباز . مكة المكرمة.
- الشافعي، محمد بن إدريس المطلبي. (1940). كتاب الرسالة ، الطبعة الأولى. الناشر مصطفى البابي الحلبي.
- ناصر الدين، عبد الله بن عمر البيضاوي. (2008). منهاج الوصول إلى علم الأصول. الطبعة الأولى. دار ابن حزم. بيروت .لبنان.

References

- Eleanor Rosch and Caroly B.mervis. (1975). Family Resemlances: Studies in the Internal Strusture of Categories. university of California. Berkely. Cognitive Psychology. By Academie Press, Inc .
- George Lakoff and Mark Johnsen (1980) Metaphors we live by. The university of Chicago press, London,Published Paperback edition 1981, Printed in United Stastes of America.

- JEAN MATER MANDLER (2004) "The Foundation of Mind: Origins of Conceptual Thougth", OXFORD UNIVERSITY press, oxford Series in Cognitive Development, Series Editors Paul Bloom and Susan A.Gelman.
- JOHN R. Anderson (2020) "The cognitive Psychology and its implications", Carnegie Mellon University, Ninth Edition of Worth publishers macmillan learning ,NEW YORK.
- Ray Jackendoff, (2007), Language, Consciousness, Culture: Essays on Mental Structure, A Badford Book The MIT press Cambridge,Massachusetts London, England, Published Paperback edition 1981, Printed in United Stastes of America.
- Ray Jackendoff, (1983), LANGUAGES OF MIND: ESSAYS ON MENTAL REPRESENTATION, First MIT press paperback edition 1985, Cambridge,Massachusetts London, England.
- Ray Jackendoff, (1992), LANGUAGES OF MIND: ESSAYS ON MENTAL REPRESENTATION, - second printing 1993, A Badford Book The MIT press Cambridge,Massachusetts London, England.
- Ray Jackendoff, (2002), foundation of language: Brain, Meaning, Grammar, Evolution, First published in paperback 2003,OXFORD UNIVERSITY press, New York.
- Ronald W.Langacker, (2017),Ten Lectures on the Elaboration of Cognitive Grammer, the Library of Congress, BRILL – LEIDEN BOSTON.

.